قراءات في مفاهيم
الأصولية، الجمود (أو التطرف) الديني، العنف والإرهاب، السلَفية، الصحوة الإسلامية

عبد الهادي بوطالب

تقديم :

منذ التغيير الذي طرأ على النظام السياسي في مفتتح سنة 1979 فيما كان يسمى أمبراطورية إيران الشاهنشاهية بتحولها إلى جمهورية إيران الإسلامية، واستبدال حكم المُولاَّ بحكم الشاه القوي، ومنذ أن قهرت المقاومة الإسلامية الأفغانية جيش الاتحاد السوفياتي الغازي وأجبرته على الانسحاب، ومنذ أن ظهرت تيارات رافضة باسم الإسلام للنظم القائمة في بعض الأقطار الإسلامية، حار الفكر السياسي الغربي في تحديد مفهوم هذه الظواهر، ثم انتهى إلى أنها لا تؤلف إلا ظاهرة واحدة حاول تصنيفها بمقاييس تصنيفِه لنزعاته الدينية، أو أخضعها لمعاييره السياسية.

ومنذ أن أصبحت بعض الدول الإسلامية (كالسودان والباكستان) تتحدث عن تطبيقها لنظام الشريعة الإسلامية، عجز الفكر الغربي عن العثور في لغته على مقابل لهذا النظام ونظيرٍ له في تصنيفاته، فاقتصر على نقل اللفظ العربي كما هو، وسمى النظام (Sharia) مُدمِجا إياه دائماً في سياق يفهم منه أنه نظام رجعي تقتصر فلسفته على قطع الرؤوس، والأيدي، والتمثيل شر تمثيل بالمحكوم عليهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وتقديم نظام الشريعة الإسلامية على هذا المنحى نزعة منطلقة إن لم تكن من جهل لا يُعذَر به صاحبه، فعن قصد الإساءة والتشهير بالإسلام، بتقديمه إلى الرأي العام الدولي في صورة نظام دموي متخلف مرعب.

وفي الاتجاه نفسه، ظهر في الأوساط الغربية نزوع لتعريف وتصنيف ظاهرة نشوء

حركات إسلامية تدعو إلى العودة إلى تطبيق مبادىء الإسلام وتعاليمه في المجتمعات الإسلامية، باعتبار الإسلام نمط حياة صالحا للخروج بالمسلمين خاصة والبشرية عامة من أوحال الماديات والانتكاسات الخلقية التي طبعت الحضارة المعاصرة.

وفي تحديد هذه الظاهرة تتوزع لغات الغرب بين التي تنعت هذه الظاهرة بالأصولية (Fundamentalism) كالأنجليزية، أو بالجمود أو التطرف الديني (Intégrisme) كاللغة الفرنسية. أما الفكر الإسلامي فقد أطلق عليها إسم الصحوة الإسلامية، وهو ما يعني أنها حركة نهضة ويقظة أو بداية حقبة جلاء وانقشاع للسحب التي تخبط العالم الإسلامي في ظلماتها وظل تحتها غافيا سادرا في رقدته.

وقبل بزوغ شمس هذه الصحوة، كان عالمنا العربي في الربع الأول من قرننا قد عرف دعوة أخرى، اصطبغت فيها السياسة بالدين، وكانت تعرف بالسلفية، التي تعني السير على نهج السلف الصالح، أي النهج الإسلامي الصحيح المتمثل في سلوك السلف من أجيال الإسلام الأولى التي طبقت الإسلام الحق اعتقادا وممارسة. ومنذ ذلك تبنت اللغات الغربية بشأنها المصطلح العربي دون تغيير (Salafisme).

لكن الفكر الإسلامي لم يعد إلى استعمال مصطلح السلفية في تنظيره ورصده وتحليله لظاهرة الصحوة الإسلامية، التي أصبحت يشار إليها بهذا الإسم منذ بداية الثمانينات، مما جعل من مصطلح السلفية تراثا فكريا شاع في المشرق العربي والمغرب العربي في فترة تتراوح بين العشرينات والأربعينات من قرننا هذا، ودخل من أجل ذلك في طيات فترته التاريخية تلك.

وعندما أخذت بعض ممارسات هذه الصحوة تثير حولها مواجهة الحكومات بالقمع، وترد هي عليه بالعنف أو تأخذ هي الأولى مبادرته، نشط الفكر الغربي لينعت كل دعوة إلى العودة إلى الإسلام بوصفي العنف (Violence) والإرهاب (Terrorisme) (بالفرنسية)، بل تجاوزت جماعات غربية حد الموضوعية والنزاهة الفكرية إلى وصف الإسلام كله بأنه ديانة العنف والإرهاب، وأن نَعْتِ المسلم يرادف نعت الإرهابي.

وإن أحداث الاضطرابات الدموية التي تعرفها مصر والجزائر وكادت تغرق فيها تونس زادت بكل أسف في تقوية الالتباس حول مقاصد الإسلام وتعاليمه، بل أعطت مصداقية في الأذهان الغريرة أو المغرر بها للنزعة الغربية المغرضة الهادفة إلى تصوير الإسلام في صورة قاتمة مرعبة تجعل من صورتي الإسلام والقتل وجهين لعملة واحدة.

وهذا البحث مجرد محاولة لكشف ما اعترى الفكر الغربي في تحليله لظاهرة العودة

إلى الإسلام من غموض والتباس أحيانا أو نزوع إلى التشهير بالإسلام والدس له أحياناً أخرى.

ولما كانت مقارنة المصطلحات التي تبدو خطأً مترادفة أو متشابهة فيما بينها تساعد على التوضيح، فإني سأحاول فيما يلي أن أردّ بعض المصطلحات المتصلة بالأصولية إلى منطلقاتها لتمييز بعضها عن بعض بما يرفع الالتباس، وما يساعد على وضع دعوة العودة إلى أصول الإسلام في موضعها السليم الحق :

1) الأصولية : (Fundamentalism)

يهتم هذا المصطلح خاصة بما يميز ظاهرة الدعوة إلى العودة إلى الإسلام من تركيز على أصول الإسلام الأولى. واستعمال لفظ الأصولية في لغتنا العربية إنما هو ترجمة حرفية لكلمة (Fundamentalism) الأنجليزية. وهي التي شاعت في اللغات الأنجلو-سكسونية لوصف الظاهرة المشار إليها، ولا تستعمل إلا قليلا في اللغات اللاتينية. ولها علاقة – كما هو معلوم – بكلمتي (Fondation) و (Fondement).

وتزدحم في التعابير الثلاثة معاني التأسيس والتأصيل والقاعدة والحقيقة والجوهر، ويصور مجموعها حقيقة الظاهرة على أنها دعوة إلى الرجوع إلى أصول الإسلام وأسسه وقواعده، والتمسك بحقيقته وجوهره، اعتقاداً وممارسة وسلوكاً، وإلى تصحيح واقع المسلمين بجعله مطابقا للأصول الإسلامية الأولى. وهذا يعني أن هذا المصطلح يرصد الظاهرة دون حكم تقييمي لها أو عليها.

وعلى ذلك فإن نعت الظاهرة بالأصولية تحديد مادي لها بالتركيز على محتوياتها التي هي أصول الإسلام وقواعده.

لكن مصطلح «فونْدمانْتاليسْم» له معنى آخر في لغة الكنيسة البروطيستانتية الأمريكية، فهو يشير إلى حقبة تاريخية عاشتها هذه الكنيسة في بداية قرننا هذا، عندما ظهرت بها في الولايات المتحدة الأمريكية نزعة دينية أطلقت على نفسها إسم الأصولية. (Fundamentalism)، وكانت تطالب بالتشبث بحرفية نصوص الإنجيل والتمسك بالأصول الكنسية، وتعارض تأويل النصوص بما يبعدها عن ظاهرها، كالنصوص المتحدثة عن معجزات المسيح وقدسيته هو وأمه، والأخرى المتحدثة عن قصص الأنبياء كقصة ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام.

وقد تطورت هذه النزعة من مناهضة التقدم المادي وما يتصل بقضايا التحديث والمعاصرة إلى تحريم دراسة بعض النظريات التي توصف بالعلمية كنظرية دارْوينْ حول

التطور التي تقدمت بمبادرة تحريمها إلى الكونغريس سنة 1918 جمعية أنشئت لذلك باسم «الجمعية الأصولية لمسيحي العـالم» «World's Christian Fundamental Association».

وإذا كان إطلاق لفظ الأصولية في معناه الأول على الظاهرة الإسلامية لا يعني حكماً تقييمياً لها أو عليها، فإن إطلاقه على الظاهرة في معناه الثاني يعني تصنيفها في نطاق النزعة الأصولية للبروطيستانتية الأمريكية المتحجرة المناهضة للتطور والتقدم والتحديث وهو ما يرادف لفظ «أنْتيكريسْم» (Intégrisme) الذي سنوضحه فيما بعد.

وبالمعنى الأول يمكن القول إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أصوليون، بمعنى أنهم متشبثون بأصول الإسلام ومبادئه. ولا يحتج على خلاف ذلك بما طرأ على بعض المسلمين من تحريف في العقيدة وانحراف في السلوك، فهما لا يمسان في شيء جوهر الإسلام وحقيقته، ولا يزعزعان أسسه وقواعده وأركانه، وإنما المسؤولون عنهما هم المنحرفون من المسلمين الذين تنبأ نبينا عليه السلام بأنهم سيظهرون بعد أن يصل الإسلام أوجه في القرون (أي العهود) الأولى من بعثته، وأشار إلى أن المسلمين سيتصاعدون على سُلّم القيم في فترة ازدهار أولى، ثم ينزلون في فترة لاحقة. فقد ثبت في الأثر أن الرسول عليه السلام قال : «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

وإلى هذا التمييز بين حقيقة الإسلام وواقع بعض المسلمين تشير المقولة المشهورة : «لا أخاف على الإسلام إلا من المسلمين» التي كان يرددها كثير من أئمة المسلمين في عهود انحطاط العالم الإسلامي.

والإسلام كدين سماوي وقيمة مطلقة، وككل معتقد أو مذهب أو تصور أو تنظير، لا يمكن قياس مقدار صحته وسلامته بسلوك معتنقيه أو دعاته، بل بطرح تعاليمه الأصلية على محك النقد الموضوعي لاستخلاص جوهره وحقيقته، على أن الإسلام يتميز في خضم هذه القاعدة العامة بتطبيقه العملي السليم في المجتمعات الإسلامية الأولى على عهد البعثة النبوية والخلفاء الراشدين، تطبيقا أكد صلاحيته ونجاحه كنمط حياة متكامل، مجيب على تساؤلات المجتمعات، ومتغلب على تحدياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وهذا ما يحملنا على القول إن المسلمين مجمعون على التشبث بالأصول الإسلامية والعودة إليها، وأن المرجعية الأصولية الإسلامية لا خلاف عليها كون هذه الأصول معلومة ومتعارفة إلى اليوم بين المسلمين بدون خلاف على اختلاف وجهاتهم المذهبية

والسياسية. وهي أركان الإسلام الخمسة التي لا نزاع فيها. كما أنها أصول أو مصادر التشريع يتقدمها القرآن الكريم الذي أجمع المسلمون في جميع العهود وإلى اليوم على أنه هو الكتاب المقدس المنزل على نبيهم، وأنه قطعي الثبوت، وأن ما يحتويه المصحف من سور وآيات منذ جمعه على عهد عثمان هو نفس الذكر الحكيم الذي كان يتلوه الرسول وصحابته، لم يطرأ على أي حرف منه تغيير ولا تبديل، وأنه متعبَّد بتلاوته، وأنه لابد للمؤمن أن يصلي بفاتحته وجوبا، وبسورة أو آيات منه ندبا واستحبابا.

وتأتي بعد القرآن ضمن أصول الدين أو مصادر تشريعه السنة النبوية المبيِّنة للقرآن و المتمِّمة لتشريعاته. عملا بالآية الكريمة : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

ولئن كان يوجد خلاف بين بعض المسلمين وأغلبيتهم في موضوع التعامل بحذر مع الأحاديث، فإن الإجماع قائم على اعتبار ما صح من الأحاديث مصدراً ثانياً للشريعة الإسلامية لا يقل حجّية عن القرآن الكريم.

ويأتي بعد السنة أصلان آخران للتشريع هما الإجماع والقياس، وأصول أخرى قال البعض بها و لم يعتمدها الجميع، كعمل أهل المدينة، والمصالح المرسلة.

وحينما لا يتوفر في الإسلام للتشريع مصادر أصولية، فإن مؤسسة الاجتهاد المتجدد التي لا يجوز أن تتوقف هي الكفيلة بإغناء التشريعات بأحكام جديدة، بشرط أن تكون اجتهاداتها مستمَدة من الأصول المحكَمة، وأن لا تتعارض مع قواعدها. وحيث يوجد النص فلا اجتهاد، فهذا لا يعمل إلا لسد الفراغ التشريعي لا لتغييره أو تعديله.

2) الجمود (أو التطرف) الديني (Intégrisme)

وهو التعبير السائد في الفكر الغربي اللاّتيني لتحديد الظاهرة الإسلامية التي نتحدث عنها.

وجاء في معجم «المنهل» تعريب الكلمة بلفظ «التمامية»، لأن الكلمة تشير إلى النزعة الكاثوليكية المتشددة التي كانت ترى أن النصوص المسيحية في منتهى التمام والكمال، وتعارض أن يضاف إليها تأويل أو يمسّها أي تجديد. وأنه يجب قبولها تامة وكاملة كما هي. ولذلك عُرِّفت بأنها «موقف الكاثوليك الذين يرفضون كل تطور ويأبون مجاراة الحياة الاجتماعية الحديثة».

أما «موسوعة الكاثوليكية الأمس، واليوم وغداً»، التي تحلل هذا المفهوم في دراسة

مستفيضة، فإنها تُعرِّفه بأنه كان في الأصل يعني «القبول التام لتعاليم وقوانين الكنيسة الكاثوليكية، وأنه يعبر عن مفهوم مناقض لمفهوم البدعة أو الانشقاق». وتحدد الموسوعة تاريخ نشأته بأوائل هذا القرن عندما احتد ما عرف بالغرب بأزمة الحداثة، وظهر تيار من كانوا يسمّون أنفسهم بالتماميين (Intégraux) للتعبير عن التزامهم اللامشروط بالكاثوليكية الرومانية، ورفضهم للكاثوليكية المتحررة أو الاجتماعية، ولكل ما من شأنه أن يمس نظريا أو عمليا بحقوق الفاتيكان والكنيسة.

وقد أحدث هذا التعصب رد فعل العديد من التيارات المسيحية التي – رغم أنها كانت تشاطر التماميين عداءهم للحداثة – فإنها كانت مع ذلك لا تقبل سد الأبواب أمام الاجتهاد. ومن هذه التيارات المدرسة اللاهوتية التي كان يتزعمها الأب «دو جرانْدميزُون» (De Grandmaison) الذي كتب سنة 1903 ما فحواه : «إنها نية حميدة تلك التي تحاول أن توفق ما بين المسيحية الكاثوليكية التمامية وبين ما للنقد الحديث من جرأة».

كما أن الكاثوليكيين الاجتماعيين حاولوا من جهتهم تجنب المواجهة مع التماميين باعتبار أنهم بحركتهم لا يسعون مطلقا إلى ما «يقلص من متطلبات الحقيقة بقدر ما يعودون إليها فيما يهم مبادىء تطلعاتهم وقواعد عملهم».

غير أن المهادفة بين التماميين والمتفتحين لم تنجح في استتباب التعايش بين الجانبين، بل زادت حدة الخلاف بينهما إلى أن أضحت النزعة التمامية بحكم موقفها غير المتسامح شعارا للتعصب. ومن ثمة اقترن مذهبهم بمفهوم التطرف المسيحي الذي يقول فيه ر. فانكورت (R. VANCOURT) صاحب كتاب «الفكر المعاصر والفلسفة المسيحية» : «علينا أن نحدد ما تعني التمامية التي غدت تشمل مفاهيم متعددة، بعضها أشد حدة من بعض».

إن إطلاق الغرب اللاتيني تعبير «الأنتِكريسْم» على التيار الإسلامي الذي ظهر في بعض المجتمعات الإسلامية منذ الثمانينات يعني إذن حكماً تقييمياً يحتضن عدة محتويات :

أولها : الإشارة إلى أن الإسلام يعاني شرخا وانقساماً في صفوفه على غرار ما عانته الكنيسة بشقّيها الكاثوليكي والبروطيستانتي من انقسام (Schisme) بين المتشددين (Rigoristes) والمعتدلين والمتساهلين (Laxistes).

وثانيها : الإشارة إلى أن النزعة الأصولية الإسلامية تمثل في شؤون الدنيا – كنظيرتها في المسيحية – المذهب الرافض للإصلاح والتطور والتقدم، وتنكمش على

نفسها حلَزونياً في نطاق جامد متحجر، أو بعبارة جامعة، إنها حركة رافضة للمعاصرة، تعيش الماضي فقط، وتستبعد من حسابها ما جدّ بعده، وتراهن على تصريف فعلها الحاضر في الماضي الذي يناهض الحاضر ويلغيه.

وثالثها : أن ميزة هذه النزعة الأساسية بالنسبة لشؤون الدين هو تشبثها الجامد بنصوص الكتاب والسنة، ورفضها لكل تفسير أو تأويل لهما، واعتقادها أن كل محاولة للتفسير أو التأويل هي مس بقدسية تلك النصوص وبدعة مرفوضة، وذلك ما عرفته الكنيسة الكاثوليكية على يد التيار المتشدد.

وعلى ذلك فإن تعبير «الأنتيكريسم» يعني في جملة ما يعنيه التقيد بحرفية النصوص وفهمها دائما على ظاهرها مما يجعل مقابله في اللغة العربية «الحرفية».

ورابعها : أن هذا التيار يصبح بتشدده وتطرفه وحرفيته يعتبر نفسه المنفرد بالوصاية على الدين الحق، والسائر وحده على نهجه القويم. وبذلك يكفّر ويزندق من عداه.

وقد اعتمد القرآن الكريم لفظ الغُلُو للدلالة على هذا التطرف الديني، ونهى عنه أهلَ الكتاب، وندد بغلوّهم في حق المسيح، وامتناعهم عن الاستجابة للدعوة النبوية الإسلامية رغم اعترافهم باطنيا بأحقيتها، فقال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

والغلوّ مشتق لغة من غَلْوة السهم، أي شدة اندفاعه للوصول إلى هدفه. واصطلاحاً هو الزيادة على المطلوب من المعقول أو المشروع في الاعتقاد أو الإدراكات أو الأفعال. وهو أيضاً تجاوز المتدين في تدينه الحد الذي ضبطه الدين للعبادات والطاعات. وأطلقت عليه أحاديث نبوية لفظ المشادّة في الدين ونهت عنها. ففي الحديث : «إن الدين يسر، ولن يشادّ أحد الدين الذي إلا غلبه» إلى آخر الحديث.

وعندما يصل الغلو إلى درجة تكفير المغالي في الدين لمن عداه من أهل دينه يلجأ المغالي عادة إلى فرض غلوه بالقوة على مخالفيه ومناهضيه.

وهذا ما يفضي بنا إلى الحديث عن الوجه الثالث الذي ألصق بظاهرة الأصولية، وهو العنف والإرهاب.

العنف (Violence) بالفرنسية والإرهاب (Terrorisme) بالفرنسية أو (Terrorism) بالإنجليزية.

يأتي العنف والإرهاب في مقابل الحوار والتفاهم بالطرق السليمة. وقد عرفت وتعرف الحركة الأصولية أسلوبين مختلفين، إذ يعتمد التيار الإسلامي المعتدل الدعوة إلى العودة إلى الإسلام بأسلوب الجدال بالتي هي أحسن، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، طبقاً للآية الكريمة التي حدد بها الله سبحانه أسلوب الدعوة وطريقة الحوار. والتعبير بالتي هي أحسن اعتمد فيه القرآن الكريم - ببلاغته المعهودة - حذف الموصوف بما يفيد عموميته، أي أن الداعي للإسلام عليه أن يستعمل في المحاجَّة والمخاصمة والدعوة كل ما هو أحسن من غيره لتنفذ الدعوة إلى الأذهان. ويستقر فعلها في الضمائر والقلوب، حتى تكون الاستجابة لها عن تقبل واقتناع، وبكامل الحرية، ليفضي ذلك إلى التسليم بحجّيتها طوعاً، فلا إكراه في الدين.

أما التيار المتشدد فيأخذ بأسلوب العنف، منطلقاً من انفراده بأحقية ما يعتقده واستبعاد ما ومن سواه من مخالفيه إلى حد الحكم عليهم بالكفر والإلحاد والمروق، ولا يبقى له بعد ذلك إلا خطوة واحدة لا يلبث أن يجتازها، وهي استحلال رقاب من يعتبرهم مارقين، وإحكام السيف فيهم باسم الجهاد لنصرة الدين الحق وتقويم المجتمع الفاسد. ومن هنا يعوض العنفُ الحوارَ، والقتلُ العمدُ الكلمةَ والموعظة.

وبهذا الغلو يقع في صميم الانحراف الديني من ينصّبون أنفسهم لتقويمه. وهكذا يشيع في المجتمعات القتل المستحِرّ الذي ينشر جو الخوف، ويعمم التربص من مطاردة الموت، وهو ما يسمى بالإرهاب.

والمؤلم أن شيوع ظاهرة الإرهاب يزلزل كيان المجتمعات بما يفضي إلى إحراق الأخضر واليابس، بدون تفريق بين من أصدر عليهم هذا التيار المتطرف حكمه القضائيَّ الغيابي في غيبة أي دفاع، ومن هم برآء حتى في نظر هذا التيار، بل إن مطحنة الإرهاب عندما لا تتوقف رحاها تطحن الصالح والطالح، وفي الطليعة أصحاب التيار نفسه.

وإذا كان العنف والإرهاب بهذا المعنى مترادفين، أو أن التعبير الأول يشكل البداية التي يؤول تكرارها إلى شيوع مفهوم التعبير الثاني داخل المجتمعات، فإن اللغة السياسية كثيراً ما تصف بالعنف ما تقابل به الحكومات هذا التيار من قمع، وتخصص لفظ الإرهاب للدلالة على ما يُرَد به على العنف أو يبتدىء به التيار المناهض للأنظمة من ممارسات دموية أو تخريبية.

والإرهاب أعلى درجات العنف. وهو أعتى تناولا وأصعب ممارسة وأكثر توفراً على وسائل الدمار من أسلحة العنف، لما صُنِّفت في ممارسته دول ونظم سياسية، وبرز من بيته تصنيف خاص يدعى الإرهاب الدولي.

وفي المصطلح الدولي يعني الإرهاب حالة الخوف التي تسود المجتمع نتيجة افتقاد الأمن، وربما كان اللفظ العربي الملائم لذلك هو الرُّعب (Terreur) بالفرنسية أو (Terror) بالأنجليزية، لكن حينما يصبح التخويف عقيدة ومذهبا فهو الإرهابية التي تستعمل في اللغات الغربية بالصيغة الدالة على المذهب (Terrorism) بالأنجليزية أو (Terrorisme) بالفرنسية.

ويمكن القول إن مفهوم الإرهاب يحتضن مفهوم العنف، بينما لا يحتضن العنف دائماً مفهوم الإرهاب.

4) السلَفية، (Salafisme) بالفرنسية

وهي حركة إسلامية إصلاحية تصحيحية، تلتقي مع الأصولية في دعوتهما إلى العودة إلى أصول الإسلام الحنيف، لكن السلفية اعتبرت بالأخص أن السلف الصالح في العهود الإسلامية الزاهرة الأولى هم الذين طبقوا هذه الأصول عقيدة وسلوكاً، وأن نمط سلوكهم هو مرجعية المسلمين لفهم الأصول والقواعد الإسلامية، وأن السلف الصالح هو القدوة التي على المسلمين واجب التحلي بنمط حياتها الذي يشكل الإسلام الحق ويستبعد ما عداه من أنماط السلوك.

وقد أطلقت هذه الحركة شعار : «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، وحددت السلف الصالح بالصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم في عصور ازدهار المسلمين. وأعلنت أن العودة التصحيحية إلى ما كان عليه السلف هي وحدها الكفيلة بعودة الأمة الإسلامية إلى اقتعاد مكانتها كخير أمة أخرجت للناس.

وعلى ذلك يكون اصطلاح الأصولية تحديداً مادياً لمفهوم ظاهرة النهضة الجديدة، واصطلاح السلفية تحديداً شكلياً، لكون الأول يركز على المواد الإسلامية المطلوب من الأمة العودة إليها، والثاني يركز على سلوك الأشخاص الجديرين بالاقتداء بمن يعكس نمطُ حياتهم النموذج الإسلامي الصحيح الذي يساعد تطبيقه ديناً ودنيا على أن يصبح المسلمون خير خلف لخير سلف.

وفي نشأة هذه الحركة الإصلاحية كان دعاتها يلحون على ضرورة تحرير الفكر الإسلامي من معوقاته وسلبياته، ويدعون للتحرر من الشعوذة والتدجيل والخرافات، والاتكالية والاستسلام للواقع المزري، تلك النقائض، التي ساعدت ووطأت لدخول المسلمين في عهد الانحطاط.

وقد اشتهر في المشرق كرائد لهذه الحركة أحمد ابن تيمية الذي انتقل من مسقط رأسه بِحَرَّان إلى دمشق (661 هـ-728 هـ/1263 م-1328 م) وكان حنبلي المذهب. واعترافاً بريادته لهذه الحركة أُطلِق عليه لقب شيخ الإسلام.

انبرى ابن تيمية للدعوة إلى هذا التصحيح من خلال دروسه وكتبه التي قيل عنها إنها لا تكاد تحصى، ومناظراته مع علماء عصره وخصومه، ومجموعة فتاويه التي ظهرت حديثاً مطبوعة في سبعة وثلاثين مجلداً. وناهض في دعوته الخرافات والبدع وتقديس الأضرحة ومقابر الأولياء والصالحين، وركز على وحدانية الألوهية والربوبية، والبعد عن التوسل إلى الله بمخلوقاته، وعارض المذاهب الفلسفية، وانتقد المناطقة، وندد بالملاحدة، وناقش بحدة المذاهب من دَهْرية وقَدَرية، ورد على المعتزلة.

وفي سبيل دعوته لقي ضروب العنَت والأذى وأُودِع السجن في الأسكندرية ودمشق، حيث مات معتقلا بقلعتها، لكن تلقى دعوته تلامذة لم يتوانوا عن نشرها كابن القَيِّم الجوزية، وكعماد الدين ابن كثير.

5) ثم توقفت هذه الحركة طيلة أربعة قرون لتعود إلى الظهور في نجد من خلال الحركة الوهابية التي كان رائدها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المزداد سنة (1115 هـ/1703 م) التي أسندها ورعاها الأمير محمد بن سعود فابنه الأمير عبد العزيز. وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب حنبليا مستوعِبا لما كتبه ابن تيمية من فتاوي وتصانيف. وعلى أساس هذه الحركة الدينية قامت دولة المملكة العربية السعودية متبنية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وفي المغرب ظهر الاتجاه السلفي على يدالسلطان محمد بن عبد الله الذي بويع سنة 1171هـ والمعروف في الغرب باسم السلطان محمد الثالث، وكان من الأسرة العلوية الممتد حكمها على المغرب إلى اليوم، وعالما محدّثاً، فحض العلماء على الاجتهاد وإعمال الفكر ونبذ التعصب والجمود، وحارب البدع والطرق.

ثم وجدت هذه الحركة سندها الكامل في المغرب على عهد السلطان العلوي مولاي سليمان الذي انعقدت بيعته سنة 1206هـ وكان أيضاً سنياً عالماً مجدداً. واشتهر هذا السلطان بدعوته إلى هذه الحركة بخطبة الجمعة التي أعدها ووزعها على مساجد مملكته ليخطب بها أئمة صلاة الجمعة، ويتعرف عليها العلماء والطلبة ويعمل الجميع بمقتضاها، وتضمنت محاربة البدع والنهي عن إقامة المواسم للصلحاء من الأموات، وقد ربط مولاي سليمان الصلة للتنسيق بينه وبين الحركة الوهابية في المشرق.

وعن هذه الخطبة كتب المؤرخ المغربي الناصري في كتابه «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» «أن السلطان تكلم فيها على حالِ مُتَفقِّرةِ الوقت، وحذّر فيها من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة، وبين فيها بعض آداب زيارة الأولياء، وحذر من تغالي العوام في ذلك، وأغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين».

وفي المشرق ارتبطت السلفية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين باسم محمد بن صفدر الأفغاني الذي اشتهر ب «جمال الدين الأفغاني»، ودعا إلى الإصلاح الديني، وقاد حركة تحرير فكرية، معتمداً المناهج العصرية العقلانية، مما جعل منه رائداً لليقظة والانبعاث في العالم العربي الإسلامي. وكان يدعو إلى إحياء نظام الخلافة الإسلامية ويسخر دعوته لمناهضة الاستعمار ونصرة حركات التحرير.

وعلى صفحات «العروة الوثقى» التي أصدرها لهذه الغاية التقت أقلام مفكرين عرب ومسلمين للتعريف بالإسلام والدفاع عنه. وعلى الأفغاني تَتَلْمَذ في مصر الشيخ محمد عبده الذي نقل مشعل السلفية. إلى الشيخ رشيد رضا الذي أصدر مجلة «المنار» بمصر، فسدت الفراغ الذي تركته «العروة الوثقى». والتقت عليها أقلام «المناريين» الذي أصبح عددهم وافراً وصوتهم مجلجِلاً بالدعوة السلفية في العالم العربي والإسلامي.

وأما في المغرب العربي فقد ظهرت دعوة سلفية لخلق ظروف المقاومة للاستعمار الفرنسي معتمدة حقلين لعملها : نشر التعليم العربي الإسلامي، وتربية المواطنين على مبادئه لصوغ إنسان متحرر قادر على الصمود في وجه المستعمِر والاستشهاد (بالمعنى الديني) في مقاومته، مما يمكن القول معه إن الحركة كانت دينية سياسية في آن واحد.

وبذلك أصبحت مصنعاً للوطنيين الصادقين، ومعقلاً منتصباً في وجه الاستعمار المتسلط.

أبو شعيب الدكالي ومحمد السايح، ومحمد العربي العلوي في المغرب، وعبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي في الجزائر، وعبد العزيز الثعالبي في تونس، كانوا نظراء محمد عبده ورشيد رضا في مصر، يلتقون جميعاً على نهج السلفية.

إن السلفية الجديدة لم تكن تدعو للعودة إلى الماضي كما قد يوحي به اسمها، وإنما كانت حركة استشراف مستقبلي تأخذ من الماضي نموذجاً لها لتنطلق صوب مستقبل تتحرر فيه الأمة الإسلامية لبناء الذات ببديل إسلامي متطور متفتح.

5) الصحوة الإسلامية

استعمل هذا المصطلح للدلالة على الظاهرة التي نتحدث عنها باعتبار أنها تتجلى

في التقاء جماعة منتمية إلى ولاء واحد في فترة زمنية تستعيد الجماعة خلالها الوعي بالقدرة على الحركة بعد السكون، وتستشعر فيها الدخول في اليقظة بعد الغفوة، وتتلمس معها الضوء المرشد إلى الطريق الصحيح بعد تخبطها في لجة الظلام، وتنشط فيها تلك الجماعة طامحة إلى تغيير واقعها وتجاوُزه عن طريق التماسك داخل الولاء المشترك.

والصحوة أيضا ترجمة لكلمة أنجليزية (REVIVAL) ونظيرتها بالفرنسية (REVEIL)، لكنها تعبير عربي فصيح مشتق من صحا من النوم أو السّكْر بمعنى أفاق وأخذ يحسّ. أي الدخول في استعادة الوعي بعد فقده نتيجة مانع طبيعي هو النوم، أو اصطناعي هو السكْر.

والعرب يعتبرون هذه الصحوة قوة واعية، وينيطونها بالعقل أو القلب. ومن ذلك قول جرير في حائيته المشهورة : أتصحو أم فؤادك غير صاحٍ ؟

ويمكن أن يكون اشتقاقها من «صحت» السماء إذا انقشعت سحبها فبرزت الشمس وتبدد الظلام.

وقد عُبِّر عن هذا المعنى بتعبيري اليقظة أو البعث أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾. ومن ذلك البعثُ بعد الموت.

وتعبير الصحوة الإسلامية لا يعني إن الإسلام قد استيقظ بعد غفوة، أو ضل عن سبيله، وإنما يعني إفاقة المسلمين واستشعارهم وجوب العودة إلى أصول الإسلام كرد فعل لما عانوه من انكسار منذ تخلوا عن النهج الإسلامي.

والصحوة الاسلامية غير النهضة الإسلامية، فالنهضة تأتي حسب مسلسل تطوري متدرج، أما الصحوة فتحتضن معنيين :

أولهما : قطيعة مباغِتة بين الحاضر والماضي هي ما يحدث فجأة في حركة الصاحي من نوم أو سكر ليجد نفسه في ساعة الوعي أو في مرحلة جديدة مناقضة لحالة السكون واللاّوعي التي سبقتها.

وثانيهما : ما يحدثه استرجاع الوعي فجأة من تحمس واستشراق للتحرك، مما يعني أن الصحوة الإسلامية استشراف متحمس في الحاضر لبناء المستقبل انطلاقاً من خير ما في الماضي. إنها تُصَرِّف فعلها في جميع الأزمنة، وتربط بين حلقات الزمان في عروة وثقى لا انفصام فيها.

ويبقى مع ذلك من الضروري التساؤل : ما المراد بالإسلامية ؟ هل الدين الإسلامي ؟ وقد استبعدنا من البداية هذا التخريج، أم الفكر الحضاري الذي عرفه العالم الإسلامي في معانقته للحضارات التي التقت على أرض الإسلام واستوعبها في تلاقح انصهرت معه الحضارات في بوتقة حضارة واحدة حملت اسم الحضارة الإسلامية ؟

وسؤال آخر ذو شقّين يوحي به تعبير الصحوة الإسلامية : هل الصحوة الإسلامية تستهدف المسلمين وحدهم ؟ أم تهم كذلك المتساكنين معهم في رقعة العالم الإسلامي الشاسعة على اختلاف معتقداتهم وطوائفهم ونحلهم ؟

ونمضي في التساؤل : وهل يحتضن هذا التيارُ العربي الإسلامي نظريةً علمية خاصة تقف وسطاً بين النظريتين الرأسمالية والاشتراكية من منطلق أن الإسلام دين الوسطية، يتوفر على بدائل شمولية مغايرة للنظريتين العالميتين في مجالات الحكم والسياسة والعلاقات الدولية والاقتصادية والاجتماع ومجالات التطور الأخرى ؟

أم أن الصحوة الإسلامية تقتصر على تحسيس المسلمين بواجب العودة إلى الأصول الإسلامية دون سعي إلى اقتراح أي نظام بديل ؟

لقد غلا بعض المنظّرين في تحميل النظام الإسلامي تفاصيل البدائل الإسلامية التي قالوا إنه يتوفر عليها في اجتهاد يشرِّف أصحابه، لكنه أدخلهم في سباق مُجهِد مع قواعد العلوم للتدليل على أن الإسلام قد أقرها أو سبقها في جميع مجالاتها. وكم خابت الآمال في اجتهاداتهم هذه كلما جاءت قاعدة علمية جديدة ناسخة لسابقتها كانوا أجهدوا أنفسهم من قبلُ في التدليل على أن الإسلام قد أقرها أو سبق إليها. وبذلك تميعت الصحوة الإسلامية في هذا التفكير الآسن الذي لم يكن له مبرر، لأنه لا يعقل أن يستقصي الإسلامُ الشاذة والفاذة في الفروع التي وكَل أمرَها إلى قريحة العلماء المجتهدين، حتى يبقى مسايراً لتطور المجتمع كرسالة عالمية صالحة لكل زمان ومكان. وقد أراد الله سبحانه خيراً بعباده عندما لم يفرض عليهم تعاليم متشددة في الجزئِيَّات والفروع.

وفي النهاية

فإن هذا البحث يقتصر على الغرض منه، وهو تبسيط المصطلحات التي نُعِتت بها حركة الصحوة الإسلامية أو الحركة الأصولية وتقريبها من الأفهام، ليكون الحوار حول هذه الظاهرة جارياً في منطلقاته الحقة.

أما الدخول في نقاش محتويات الظاهرة ونقد توجهاتها أو تصحيح مفاهيمها عند الاقتضاء، فهو حديث أسال كثيراً من حبر الأقلام، وانفسحت له صفحات الكتب والمجلات ووسائل الإعلام، وشغل حيزاً كبيراً في اهتمام الجامعيين والأكاديميين.

ومع ذلك فلا يكفي ذلك الكثير الذي كُتِب عنه، لأن التوجه الأصولي ما يزال في حاجة إلى التعريف به تعريفاً سليماً يساعده على الخروج مما يشوبه من انحراف وغلو يفقد بهما إشراقه ونصاعته، ويتضرر منهما بكل أسف الإسلام نفسه.